الفصل السادس

الصهيونية والعنصريات الحديثة

عندما وصفت الجمعية العامة للأمم المتحدة الصهيونية بأنها «شكل من أشكال العنصرية والتمييز العنصرى» فى قرارها رقم ٣٣٧٩ (٣٠) الصادر فى ١٠ نوفمبر عام ١٩٧٥م، أصيب العالم الغربى بصدمة عنيفة؛ فالصهيونية ترمز عنده إلى عكس ذلك: إنها شكل من أشكال القومية وهى حركة التحرير الوطنية للشعب اليهودى. وقد لخص برنارد لويس، العالم البارز بشئون الشرق الأوسط، الموقف بقوله:

> **ليست الصهيونية حركة عنصرية فى الأساس، ولكنها شكل من أشكال القومية أو حركة تحرير وطنى بالمصطلح الحديث. وهى كغيرها من الحركات، تجمع تيارات مختلفة، بعضها نابع من العرف والضرورة، والبعض الآخر حملته لها رياح التغير والأنماط الدولية. وأهم ما فى الأولى هو الديانة اليهودية بتأكيدها المستمر على صهيون والقدس والأرض المقدسة، وأفكار العبودية والاغتراب والعودة، وهى أفكار متداخلة معًا ومتكررة. وكان للإيمان بالمسيح المنتظر وحركات الإحياء الدينى التى ظهرت بين اليهود منذ القرن السابع عشر مساهمة مهمة فى نشوء هذه الحركة**[1].

وقد قبل برنارد لويس، كغيره من الكثيرين المدافعين عن الصهيونية، الأسطورة الصهيونية التى تكتنف إسرائيل وأيد الفكرة القائلة: «**إن الصهيونية السياسية العلمانية تحقق المعتقدات الروحية اليهودية**».

إن الفهم الواضح لظاهرة الصهيونية غير اليهودية بمنظورها التاريخى الكامل تمكننا

من «خلع قناع أسطورة الصهيونية» ورؤيتها على حقيقتها الأساسية، وهى أنها نتاج الفلسفات الأوروبية العنصرية والاستعمارية. لم تكن الصهيونية فى أساسها حركة يهودية متميزة، وكانت تواجه معارضة اليهود المتدينين الذين أنكروا محاولة إعطاء أبعاد جغرافية للمملكة الروحية من جهة، كما كانت تواجه من جهة أخرى معارضة من جانب اليهود الداعين للحقوق المدنية الذين كانوا يسعون إلى الخلاص الكامل وسياسات الهجرة المفتوحة.

ومع مطلع هذا القرن، كان الاستعمار الصهيونى لفلسطين جزءاً من الحركة الاستعمارية الأوروبية الكبرى، فالصهيونية ـ شأنها فى ذلك شأن اللاسامية والنازية والتمييز العنصرى ـ كانت جزءاً أساسيّا من الثقافة الفكرية والسياسية الأوروبية، وذات جذور تمتد إلى أبعد من القرنين التاسع عشر والعشرين. والصهيونية بمظهرها غير اليهودى تكشف بوضوح عن الارتباط الوثيق بين الصهيونية والعنصرية واللاسامية والنازية.

الصهيونية واللاسامية والعنصرية

كان الصهيونيون الأوائل مثل هرتزل، ووايزمان يعتبرون اللاسامية وضعًا طبيعيّا وردة فعل طبيعية وعقلانية من غير اليهود ضد «وضع اليهود الشاذ والسخيف فى الشتات»[٢]، وكان أرنولد توينبى يرى أن الصهيونية غير اليهودية قد تنبع من الشعور بالذنب حول اللاسامية، وهو يربط بين الصهيونية واللاسامية بعبارات سيكولوچية[٣]. والواقع أن تاريخ الصهيونية غير اليهودية، كما رأينا، حافل بالأمثلة على أنصار الصهيونية الذين كانوا لا ساميين عن تعمد، وقد اقتبسنا فى الفصل الأول بعضًا مما قاله ماينرتز هاجن، كبير الضباط السياسيين فى فلسطين وسوريا فى هيئة أركان اللنبى وأحد الصهيونيين المتحمسين، وفيما يلى مثل آخر من لا ساميته الصريحة:

> **إننى مشرب بعواطف لا سامية، وأتمنى لو تنفصل الصهيونية عن القومية اليهودية، ولكنها لا تستطيع ذلك. إننى أفضل قبولها على حالها على أن أرفضها لأسباب غير جوهرية[٤].**

وهو نفسه الذى قال:

إن آرائى عن الصهيونية هى آراء صهيونى متحمس، والأسباب التى أثارت فى نفسى إعجابًا بالصهيونية كثيرة ومتنوعة، ولكنها متأثرة بشكل رئيسى بوضع اليهود غير المرضى فى العالم، والميل العاطفى الكبير لإعادة إيجاد جنس بعد تشرد دام ألفى عام، والقناعة بأن الأدمغة والأموال اليهودية - إذا ما ساندتها فكرة قوية كالصهيونية - تستطيع أن تقدم الحافز نحو التنمية الصناعية التى تحتاجها فلسطين بشكل ضرورى بعد أن بقيت أرضًا بوارًا منذ زمان طويل[٥].

وليس هذا التحالف بين اللاسامية والصهيونية قضية سيكولوچية سواء أكانت عقلانية أم لا شعورية، فهما يعملان نظريًا وعمليًا على المستوى نفسه ويكمل كل منهما الآخر ويدعمه.

وكان ماينرتز هاجن يدرك الأهمية الإستراتيچية لفلسطين:

الواقع أنه ليس من المبالغة فى شىء القول بأن فلسطين قوية وصديقة أمر حيوى للأمن الإستراتيچى المستقبلى للكومنولث البريطانى، ولا يمكنها أبدًا أن تكون قوية وصحيحة فى ظل السيطرة المجزأة، ولا فى ظل أى شكل من أشكال الحكم العربى[٦].

والارتباط بين اللاسامية والصهيونية غير اليهودية أعمق من ذلك بكثير، وهو ليس مجرد توازن للمصالح ضد الأهواء. فقد قامت الصهيونية غير اليهودية على أساس الاحترام الرومانسى لليهود كجنس؛ ولكن ذلك يخفى وراءه مواقف أكثر سلبًا تجاه اليهود كشعب. كان الصهيونيون غير اليهود من أمثال: بلفور، ولويد چورچ، وماينرتز هاجن يؤمنون بشدة بتفرد اليهود كجنس، وكانت هذه الفكرة عن تفردهم هى التى جعلت الحصص النسبية للهجرة لبريطانيا (الكوتا) تأخذ شكل المطالب القومية فى فلسطين.

أما على مستوى السياسات العملية، فقد اعتبر تيودور هرتزل اللاساميين أهم الحلفاء والأصدقاء الذين يمكن الاعتماد عليهم. وبدلاً من أن يهاجم هرتزل اللاسامية

ويشجبها، أعلن أن «اللاساميين سيكونون أكثر الأصدقاء الموثوقين، وستكون الدول اللاسامية حليفة لنا»[٧] وقد رحب باحث صهيونى آخر، هو چاكوب كلاتزكن، باللاسامية[٨].

ونظرية تفرد الجنس اليهودى هذه هى أساس الشك العميق الذى كان يستشعره الصهيونيون اليهود وغير اليهود تجاه المتهودين كاللورد مونتاجو، ولوسين ولف، واللورد ريدنج، وسنفسح المجال لـ (ماينرتز هاجن) ليتحدث عن هذا الإحساس:

> **ولكن إذا كان اليهود سيحققون نفوذًا فى هذه البلاد فى المهن والتجارة والجامعات والمتاحف والمالية وكأصحاب للأراضى، فإن علينا طبعًا أن نعمل ضدهم، ولكن ذلك لن يكون على شكل معسكرات اعتقال[٩].**

وكانت النزعات العنصرية فى فلسفة القرن التاسع عشر قائمة على الفكرة الرئيسة، وهى أن جنسًا ما متفوق بشكل طبيعى على غيره من الناس. والصهيونية بسبب ادعائها أن اليهود يشكلون «الجنس المختار» الذى ينبغى ألا يذوب فى الأجناس الأخرى «الأقل منه شأنًا» ليست إلا مظهرًا آخر من مظاهر هذه العنصرية.

لم تنشأ الأفكار العنصرية، بما فى ذلك الصهيونية واللاسامية والنازية، من فراغ. وتطور العنصرية بأشكالها المختلفة كان متوافقًا مع ظهور الاستعمار الأوروبى وتوسعه القائم على استعمار العالم غير الأوروبى. **وقد استغلت العنصرية وفلسفتها الأساسية لجعل النظام الاستعمارى شرعيًا، ولتقديم الدعم الأيديولوچى لعملية الاستعمار وأن «واجب الرجل الأبيض» هو أن يُحَضِّرَ الأمم «المتأخرة» غير القادرة على مساعدة نفسها.**

كان الصهيونيون غير اليهود يحملون وجهة نظر عنصرية محددة عن اليهود، وكانت هذه متأصلة فى أسطورة القرن التاسع عشر العنصرية الاستعمارية. كان اليهود يحظون بالاحترام كجنس مختار خارج المحيط المسيحى غير اليهودى، وكان التفوق اليهودى أمرًا مسلمًا به بالمقارنة مع تخلف العرب، وكان ذلك مقرونًا بتعظيم الفضائل اليهودية باعتبارها نقيضًا للرذائل العربية، ومما قاله ماينرتز هاجن «الذكاء فضيلة يهودية، والخداع رذيلة عربية»[١٠]. وقد وصف اليهود بأنهم «نشيطون وشجعان وحازمون

وأذكياء» ووصف العرب بأنهم «منحطون وأغبياء وخونة لا ينتجون إلا الأمور الشاذة المتأثرة بصمت ورومانسية الصحراء»[١١].

ومع التوسع الاستعمارى البريطانى فى الشرق الأوسط، أصبح المواطنون العرب هدفًا محتومًا للعنصرية بسبب ديانتهم وثقافتهم ولونهم، وفوق ذلك كله بسبب معارضتهم للتدخل الأجنبى، وكان اليهود يعنون بالنسبة لفلسطين «التقدم» و«إقامة حكومة حديثة» فى حين يرمز العرب إلى «الركود والفجور، والحكم المتعفن، والفساد والمجتمع الكاذب»[١٢].

كان الصهيونيون غير اليهود يتهمون العرب باستمرار بالرجعية ويلقون مسئولية انحطاط فلسطين والشرق الأوسط على كواهلهم. وقد هيأت هذه النظرية العنصرية المسرح للاستيطان الاستعمارى اليهودى فى فلسطين، ويعبر ماينرتز هاجن عن ذلك بصراحة:

> **لن يصل العربى الفلسطينى إلى مستوى الموهبة الطبيعية اليهودية بأية حال، وسيبقى اليهودى دائمًا فى القمة وهو ينوى البقاء هناك. إنه يتطلع إلى دولة يهودية ذات سيادة فى فلسطين. وإلى وطن قومى حقيقى وليس إلى اتحاد فيدرالى عربى يهودى زائف. . . . إن اليهودى، مهما وهن صوته ورقت طباعه، سينجح فى النهاية وسيسمع صوته. سيتهدد العربى وسيتوعد. وسيعزف آخرون فى أوروبا وأمريكا مدائحه إذا ما تكسرت الأوركسترا المحلية ولكنه سيبقى حيث هو وحيث كان. . . مقيمًا فى الشرق يجتر أفكارًا راكدة، ولا يرى أبعد من مبادئ محمد الضيقة**[١٣].

وكان الصهيونيون الأمريكيون غير اليهود، كما رأينا، يضمرون الأفكار نفسها والأهواء المعادية للعرب. وعلينا أن نذكر كيف أن لودج **«لم يكن يحتمل أبدًا فكرة أن تكون القدس وفلسطين تحت حكم المحمديين»** وأن حكم العرب لفلسطين كان يبدو «إحدى اللطخات الكبيرة على وجه الحضارة يجب أن تمحى»[١٤]. وبعث كلارك كليفورد مذكرة للرئيس ترومان بعد ذلك الوقت بعقدين من الزمان يحثه فيها على العمل الجاد لتقسيم فلسطين محذرًا من أن «الولايات المتحدة تبدو موضع سخرية وهى ترتجف أمام تهديدات قلة من القبائل الصحراوية الرحل»[١٥]. أما اليهود فقد كانوا من

ناحية أخرى قومًا يعتمد عليهم؛ لأن مجتمعهم «نتاج المغامرة الحرة» وفلسطين اليهودية «ستتجه بقوة نحو الولايات المتحدة وهى تمثل حصنًا قويًا ضد الشيوعية»[١٦].

ومع صعود نجم الصهيونية غير اليهودية، كانت مجموعة كاملة من الآراء المتحاملة على العرب تتكون فى ضمير الغربيين، وقد تم إيجاد قوالب عنصرية ثقافية ثابتة لا تزال تنمو فى الغرب. وكان اليهود يجسدون معظم الفضائل الغربية، وينبغى لهم أن يستوطنوا فلسطين من أجل الحضارة. ذلك أن المهمة الأولى للصهيونية هى «تحضير وتحديث فلسطين» ـ كقاعدة للحضارة ـ فى مواجهة الهمجية كما أعلن هرتزل نفسه ذات مرة[١٧].

وكان المؤمنون بالجنس اليهودى وتميزه العرقى من غير اليهود أكثر منهم بين اليهود الغربيين أنفسهم. وقد قدم اللورد أدوين صمويل مونتاجو، أبرز ممثلى اليهود الإنجليز، مذكرة لمجلس الوزراء البريطانى فى أغسطس عام ١٩١٧م إبان المداولات حول وعد بلفور أكد فيها وجهة نظره أن «سياسة حكومة جلالته لا سامية فى النهاية، وستثبت أنها أساس لتجمع اللاساميين فى كل بلد فى العالم»[١٨]. وقد رفض اللورد مونتاجو بشكل قاطع الفكرة الصهيونية عن أمة يهودية متميزة وشجب الصهيونية «كعقيدة سياسية ضارة» وشكل من أشكال اللاسامية، كما اتهم بشكل غير مباشر الصهيونيين البريطانيين غير اليهود (بلفور ولويد جورج واللورد ملنر ومارك سايكس وغيرهم) بأنهم لا ساميون سريون يريدون تجريد اليهود من الوضع التحررى الذى حصلوا عليه حديثًا فى الحياة السياسية والمدنية فى إنجلترا.

وكان الصهيونيون غير اليهود يعارضون بشكل مباشر يهود إنجلترا الذين يسعون إلى التحرر الكامل. وعلى ذلك فقد رأينا اللورد شافتسبرى يهاجم قانون التحرر الكامل عام ١٨٥٨م بحجة أنه سيخرق ما يسمى بـ«المبادئ الدينية». **وفى عام ١٩٠٥م ناضل بلفور من أجل إقرار قانون الغرباء الذى يحد من الهجرة اليهودية من أوروبا الشرقية بسبب «الويلات الأكيدة التى أصابت البلاد نتيجة هجرة كانت يهودية فى معظمها»[١٩]، وقد تعرض بلفور ـ والذى اعتبر بعد ١٢ عامًا صهيونيًا عظيمًا ـ لهجوم فى المؤتمر الصهيونى السابع بسبب اللاسامية المكشوفة فى سياسته المعادية للهجرة اليهودية، واتهمه المندوب الإنجليزى للمؤتمر م. شاير بـ«اللاسامية الصريحة ضد الشعب اليهودى كله»[٢٠].**

وكان لويد جورج كذلك معروفًا بميوله المختلطة حول دور اليهود فى إنجلترا، فقد كانت بعض خطبه فى البرلمان حول جنوب إفريقيا مثلاً تصطبغ بلا ساميته الفظة «حين أبدى فى النقاش الذى دار فى البرلمان عام ١٤٠٩م حول عرض شرق إفريقيا على الصهيونيين سخريته من اليهود[٢١]، وقد خاطب زميله اليهودى فى الحزب السير ألفردموند بأنه عضو آخر من جنسه سيئ السمعة»[٢٢]، وقد لاحظ رئيس الوزراء «أسكويث ـ Asquith» موقفه المزدوج المتلون من اليهود عندما كان وزيراً للذخيرة، ووصفه فى مذكراته بأنه الوحيد المؤيد لمذكرة هربرت صمويل عن مستقبل فلسطين «الذى لا داعى للقول بأنه لا يكترث شر نقير باليهود أو ماضيهم أو مستقبلهم»[٢٣].

وكانت اللاسامية كذلك أحد العوامل التى اجتذبت مارك سايكس للصهيونية، فقد كان نفوره من اليهود «يتجلى فى شكه فى الصهيونية فى بادئ الأمر، ولكن ما إن وقف على المعنى الحقيقى للصهيونية حتى بدأ ينظر إليها ـ وهو المؤمن بالقومية والاستعمار والمتحمس لهما ـ فى ضوء مختلف[٢٤]، وكان من نتيجة التمجيد الصهيونى «للعبرى الحقيقى» بالمقارنة مع «اليهودى المتأنجلز» أن تقبل هذه الأيديولوچية الجديدة. ولم يكن يحمل حبًا لليهودى الهجين «كغيره من الصهيونيين غير اليهود، وكان يفضل عليه اليهودى الذى يؤكد تميزه العرقى كوايزمان»[٢٥]، ويظهر إحساسه القومى المستقل باعتزاز. ولم يبدأ مارك سايكس يعمل من أجل هدف الصهيونية فى فلسطين إلا بعد أن تعرف شخصيًا على الزعيم الصهيونى اليهودى.

وترادف الصهيونية واللاسامية يعلل كذلك الآراء المتناقضة عن الكولونيل هاوس مستشار وودرو ولسن، فقد هلل له بعض الصهيونيين باعتباره صديقًا للصهيونية، والقوة الدافعة لسياسات الرئيس ولسن الصهيونية، بينما اتهمه آخرون بأنه كان يعمل ضد الصهيونية بسبب آرائه اللاسامية المكشوفة[٢٦]، والتى تكشفت فى مراسلاته مع ولسن. وعندما انقلب هتلر ضد اليهود فى ألمانيا فى الثلاثينيات، قال هاوس للسفير الأمريكى فى برلين: «إنهم (النازيون) على خطأ، بل إنهم رهيبون، ولكن يجب ألا يسمح لليهود بالسيطرة على الحياة الاقتصادية والفكرية فى برلين كما كانت حالهم لفترة طويلة»[٢٧].

الصهيونية والنازية

قويت الرابطة بين الصهيونية واللاسامية كذلك بين الصهيونية والنازية، فقد كان آباء النازية السياسيون والأيديولوچيون يشاركون الصهيونيين مفهومهم العنصرى، ففكرة «الجنس المختار» عند النازية لم تكن تختلف عن فكرة «الجنس المختار» عند الصهيونية إلا فى هوية هذا الجنس: هل هو الجنس الآرى أو اليهودى؟!. ولم يكن الصهيونيون اليهود وغير اليهود يستشعرون أية كراهية للنازية وسياساتها وممارساتها اللاسامية. وقد طلب وايزمان ذات مرة من ريتشارد ماينرتز هاجن أن يوضح الصهيونية ومضامينها لهتلر الذى كان يعتقد أنه «غير معاد للصهيونية» [٢٨]. وكان «ماينرتز هاجن» نفسه أكثر ما يكون تفهمًا للاسامية النازية فقد كتب:

> **إن وجهة نظرى الخاصة أن للألمانى الحق الكامل فى أن يعامل اليهودى كأجنبى وينكر عليه المواطنة الألمانية. إن له الحق حتى فى طرده من ألمانيا، ولكن ذلك يجب أن يتم برفق وعدل... إن اليهود يعاملون الآن فى ألمانيا كغرباء كما هم فى الواقع غرباء من حيث الجنس والتقاليد، والثقافة والدين** [٢٩].

وكان وايزمان، حسب رأى ماينرتزهاجن، يفضل «أن يهلك اليهود الألمان جميعًا على أن يرى فلسطين وقد ضاعت» [٣٠]. وقد كلف وايزمان ماينرتزهاجن بأن يعقد صفقة مع النازيين تساعد اليهود الألمان على الهجرة إلى فلسطين.

وتبرز الدراسات الحديثة حول التعاون النازى الصهيونى تماثل مصالح الطرفين [٣١]، ولا يهمنا فى دراستنا هذه علاقاتهما التقنية المشتركة، فقد عولجت بشكل موسع فى مكان آخر. [٣٢] ولكن جوهر هذه العلاقة النازية الصهيونية يشير بوضوح إلى طبيعة الصهيونية العنصرية. لقد كانت الصهيونية ترى أن النازيين مؤهلون للانضمام إلى صفوف الصهيونيين غير اليهود، وكانت النازية ـ بعنصريتها اللاسامية ـ هى التى جعلت المشروع الصهيونى أمرًا ممكنًا فى فلسطين عام ١٩٤٨م.

لم تكن فلسطين اليهودية قبل أن يظهر هتلر على المسرح السياسى الأوروبى أكثر من مشروع مستوطنة صغيرة تضم أقل من ٢٠٠ ألف يهودى، يعتمد معظمهم على الأموال الصهيونية التى تجمع من خلال «الشتات». وفى عام ١٩٢٧م، كانت الهجرة

اليهودية من فلسطين تفوق الهجرة إليها، ولم يكن اليهود يملكون عام ١٩٣٤م إلا ٥٪ من أراضى فلسطين. وبينما كان غير اليهود يصفون فلسطين بأنها «أرض اللبن والعسل» فإن فكرة الهجرة إلى «أرض جرداء» فى الشرق لم تكن تستهوى يهود العالم كثيراً. ورغم الاضطهادات اللاسامية العنيفة، فإن غالبية اليهود كانت تفضل البحث عن ملاذ لها فى الولايات المتحدة أو إنجلترا، ولكن قوانين الهجرة المقيدة فى الدول الأنجلوسكسونية كانت تجعل ذلك مستحيلاً. وفى أعقاب معسكرات الإبادة النازية صارت فكرة أن مستقبل فلسطين يهوديًا أمر مضمون.

وخلال مناقشات الجمعية العامة للأمم المتحدة حول فلسطين عام ١٩٤٧م، وقع حادث له دلالته. ففى الوقت الذى كان يجرى فيه التصويت على تقسيم فلسطين؛ قُدم مشروع قرار آخر يدعو كل الدول الأعضاء للسماح لليهود بالدخول إليها حسب حصص معينة. ولم يكن مفاجئًا أن يهزم هذا القرار بعد فشل مؤتمر إيڤيان وپرمودا، فقد قامت الدول التى صوتت إلى جانب التقسيم بالتصويت ضد قرار الهجرة اليهودية أو الامتناع عن التصويت. أما الدول التى كانت قد صوتت ضد تقسيم فلسطين وضد الصهيونية فإنها صوتت الآن إلى جانب حصص نسبية (كوتا) أعلى للهجرة اليهودية إلى الدول الغربية، وعبرت عن رغبتها فى استقبال المزيد من المهاجرين اليهود[٣٣].

الصهيونية وسياسة التمييز العنصرى

إن التشابه بين الصهيونية وسياسة التمييز العنصرى فى جنوب إفريقيا يكمن فى احتكام كل منهما لتأثير «حضارى» نابع من المبادئ التوراتية. فالكنيسة الإصلاحية الألمانية، وهى كنيسة المستوطنين الذين هم من أصل أوروبى فى إفريقيا، تعتمد على فقرات من العهد القديم؛ لتظهر أن عدم المساواة بين الأجناس أمر كتبه الله. **ويعتبر مواطنو إفريقيا سلالات حام الدنيا بينما يعتبر المستوطنون البيض أنفسهم سلالات سام الذين ينبغى عليهم أن يُحَضِّروا هؤلاء السود**[٣٤].

وتعتمد الصهيونية كذلك على فقرات العهد القديم لتبرر الادعاء اليهودى بحق تملك فلسطين واستعمارها، فاليهود وحدهم هم القادرون على إعادة «الحضارة» إلى فلسطين التى يطالبون بها كحق لهم طبقًا للنبوءات التوراتية.

وقد تجلت العلاقة الوثيقة المتبادلة بين الصهيونية والتمييز العنصرى فى إيمان الچنرال چان كريستيان سمتس الراسخ بالصهيونية وافتتانه بها «لم ينبثق عن دوره كوكيل للوجود البريطانى الاستعمارى فحسب، بل من لاهوت قومه الأفريكانيين(*) العنصرى الذى تم تفسيره بشكل غير صحيح(٣٥). وصهيونيته نابعة من خلفيته الشخصية ومفهومه عن الحضارة الغربية التى حورتها معتقداته الدينية الكالڤنية، ولقد كانت صداقته للزعيم الصهيونى حاييم وايزمان نتيجة لصهيونيته وليست سببًا لها.

كان موقف سمتس من الصهيونية نتيجة طبيعية لإيمانه بالدور التاريخى المهيمن للحضارة الغربية، ومكان اليهود باعتبارهم حملتها وحماتها. وكانت الحضارة فى نظره هى «الحضارة البيضاء»، وكانت وحدة البيض ضرورة مطلقة ولا مجال فيها للاسامية الغربية التقليدية. وكان اليهود حسب فلسفة سمتس فى عداد البيض، بينما كان العرب فى عداد السود. وكان الأساس الروحى لهذه المعادلة العنصرية هو اعتقاده أن خلفية كل من اليهود وشعبه فى جنوب إفريقيا واحدة.

> **إن لهما الخصائص نفسها، فكلاهما شعب عنيف شديد متدين جدًا، وحياة كل منهما مبنية على الدين الذى تلقياه من كتاب واحد وهو العهد القديم. . . إنهم الشعب المختار ـ كما يشعر الألمان أنهم الشعب المختار ـ الذى اختاره الله نفسه وفضله على الآخرين. وكل يهودى يدرك أنه اختير خصيصًا ليكون يهوديًا**(٣٦).

وكان سمتس يبرز فى مناسبات كثيرة الارتباط الروحى بين البيض فى جنوب إفريقيا واليهود فى فلسطين، ففى خطاب ألقاه عام ١٩١٩م أمام حشد من الصهيونيين قال:

> **لا داعى لتذكيركم بأن البيض فى جنوب إفريقيا، وبخاصة**

(*) الأفريكانيون هم الهولنديون والفرنسيون البروتستانت الذين هاجروا واستعمروا جنوب إفريقيا.

المستوطنون الألمان المسنون، قد نشئوا على التعاليم اليهودية. لقد كان العهد القديم، وهو أروع أدب أنتجه عقل الإنسان، أساس الثقافة الألمانية فى جنوب إفريقيا[٣٧].

ولم يكن سمتس، بتصنيفه العرقى إلى بيض وسود، يبدى أى احترام للعرب كشعب، ولا لوضعهم فى فلسطين، شأنه فى ذلك شأن غيره من الصهيونيين غير اليهود. وتصف كاتبة سيرة حياته سارة جيرترود ملن، وهى يهودية من جنوب إفريقيا، موقفه المتعالى هذا:

أما العرب، فلا يبدو العربى البدوى غريبًا عن المواطن الإفريقى كما هو بالنسبة للأوروبى؛ لأن الإفريقى يعرف الشعوب سود البشرة جيدًا - وهى شعوب تشبه العرب فعلاً - لأن الدم العربى موجود فيهم[٣٨].

أما الشعب اليهودى، الذى اعتاد سمتس أن يشير إليه باسم «الشعب الصغير» فإن له رسالة تحضير فى العالم لا يعلى عليها[٣٩]، والشعب اليهودى، فوق ذلك كله، منبع الحضارة الغربية وله يدين الغرب بوجوده وعليه أن يوقظ الشرق الأوسط «الذى انقضت قرون على نومه» ويقوده «على دروب التقدم»[٤٠].

وقد كشف موقف سمتس من الهجرة اليهودية إلى جنوب إفريقيا خلال العهد النازى أن الصهيونية واللاسامية متعاضدتان. ففى أثناء نقاش برلمانى عام ١٩٤٧م حول مسألة الهجرة الأجنبية، اقترح السيد كنتردج، أحد أعضاء وفد جنوب إفريقيا، أن تكون قوانين الهجرة إلى جنوب إفريقيا أكثر تسامحًا بحيث تتيح لعدد أكبر من اليهود دخولها، فاعترض سمتس على هذا الطلب «الإنسانى» لأسباب صهيونية محتجًا بأن الهجرة اليهودية المتزايدة إلى جنوب إفريقيا لن تحل المشكلة اليهودية ولكنها ستخلق عداءً للسامية فقط. واقترح سمتس أن تركز جنوب إفريقيا جهودها للمساعدة فى إقامة وطن قومى يهودى فى فلسطين كحل للمشكلة اليهودية.

تتوجت الأسس النظرية المشتركة للصهيونية والتمييز العنصرى بالعلاقة الخاصة التى قامت فيما بعد بين حكومة إسرائيل والنظام العنصرى فى جنوب إفريقيا، واستمرت

الروابط الشاملة بينهما منذ عام ١٩٤٨م على جميع المستويات السياسية والاقتصادية والعسكرية متحدية القوانين الدولية وإدانات التمييز العنصرى. وكانت حكومة جنوب إفريقيا برئاسة سمتس من أولى الدول التى اعترفت بدولة إسرائيل فى ١٤ مايو عام ١٩٤٨م. وعقب ذلك بيومين، هزم حزب دانيال إف. مالان الوطنى سمتس فى الانتخابات العامة، ولكن وصول مالان للرئاسة لم يؤثر على تعاون الصهيونية مع جنوب إفريقيا[٤١].

كانت مشاعر مالان مزيجًا من اللاسامية والصهيونية، فـ (مالان) هو نفسه الذى قدم عام ١٩٣٠م مشروع قانون (الكوتا) الذى يحد الهجرة اليهودية من أوروبا الشرقية. وكانت سياسات حزبه الوطنى المعادية لليهودية تقارب اللاسامية العنيفة، وكان معروفًا عنه موالاته لهتلر وتعاونه مع النازية. ورغم هذا السجل الطويل من اللاسامية، وجد الحزب الوطنى سببًا لتعديل سياسته اللاسامية العلنية على الأقل فى الوقت الذى أوشك هدف الحركة الصهيونية السياسية ـ وهو خلق دولة يهودية فى فلسطين ـ أن يصبح حقيقة[٤٢]. وكانت الحكومة الوطنية برئاسة مالان هى التى اعترفت بشكل شرعى بالدولة اليهودية بعد الانتصار الهزيل الذى حققته على سمتس فى ٢٦ مايو عام ١٩٤٨م، وكان التحالف الذى قام بين إسرائيل الصهيونية وجنوب إفريقيا العنصرية هو النتيجة الطبيعية لفلسفتيهما السياسية العنصرية المشتركة. وكان الامتياز الذى منحه مالان للدولة الجديدة يعنى أنه يؤكد أن الإحساس العرقى لليهود سيجعلهم «يفهمون ويحترمون مشاعر كل قطاع فى المجتمع غيرهم»[٤٣]. وقد أبدى الدكتور لسلى روبين، أحد مواطنى جنوب إفريقيا المبعدين وأحد مؤسسى حزب الأحرار، الملاحظة الماكرة التالية:

> **كان هناك شعور بالصلة مع الإسرائيليين فى التخلص من النير البريطانى. وقد يصف عالم النفس ذلك بأنه إعجاب بما أنجزه الآخرون وما يعتبر بالنسبة لهم رغبة مكبوتة. كما أن كثيرًا من أعضاء الحزب الوطنى ـ وهذه وجهة نظر واحد من زعماء الفكر الأفريكانيين ـ رأوا أن انتصار اليهود على العرب هو انتصار للبيض على غيرهم. وقد عبر مالان، والذى كان قد تقدم به العمر، عن حماسه لإعادة اليهود إلى وطنهم القديم طبقًا للنبوءة التوراتية[٤٤].**

وتعكر صفو العلاقات الطيبة بين إسرائيل وجنوب إفريقيا فيما بين يوليو عام ١٩٦١م، ويونيو عام ١٩٦٧م؛ بسبب تصويت إسرائيل فى الجمعية العامة للأمم المتحدة إلى جانب قرار يدين سياسة التمييز العنصرى فى جنوب إفريقيا، وكان هدفها من ذلك هو تهدئة دول إفريقيا السوداء التى كانت تسعى إلى كسب رضاها آنذاك. وقد كشف رئيس وزراء جنوب إفريقيا «هندرك ف. فيرود» عن زيف الإدانة الإسرائيلية للتمييز العنصرى بإبراز التطابق بين الصهيونية والنظام العنصرى «لقد أخذ الصهيونيون إسرائيل من العرب بعد أن عاشوا فيها ألف عام . . . إن إسرائيل دولة عنصرية كجنوب إفريقيا»[٤٥].

وكان دعاة التمييز العنصرى فى جنوب إفريقيا يدركون وحدة المصير التى تربط مستقبل جنوب إفريقيا بإسرائيل، كما أكدت ذلك صحيفة الحزب الوطنى الرسمية «دى بيرجر ـ Die Burger»:

> **لإسرائيل وجنوب إفريقيا مصير مشترك، فكلاهما مشغول بالصراع من أجل بقائه، وكلاهما فى صراع دائم مع الأكثرية الحاسمة فى الأمم المتحدة. إنهما يعتمدان على القوة فى منطقة لولاهما لوقعت فوضى مناهضة للغرب. ومن مصلحة جنوب إفريقيا أن تنجح إسرائيل فى احتواء أعدائها الذين يعدون من أشر الأعداء. وإذا ما أغلقت الملاحة حول رأس الرجاء الصالح بسبب تقويض سيطرة جنوب إفريقيا فإن إسرائيل ستثير كل العالم ضد ذلك**[٤٦].

كانت النكسة التى أصابت العلاقات الرسمية بين الحكومتين نتيجة إدانة إسرائيل اللفظية لسياسة التمييز العنصرى عام ١٩٦١م قصيرة الأجل. ففى أعقاب الحرب العربية الإسرائيلية عام ١٩٦٧م، عادت العلاقات الحميمة والعلنية بين الدولة اليهودية وجنوب إفريقيا واتسع نطاق العلاقات السياسية الأيديولوجية والاقتصادية والعسكرية بين الطرفين. وفى عام ١٩٧٣م، أدان المجتمع الدولى لأول مرة «التحالف غير المقدس بين الاستعمار البرتغالى والعنصرية فى جنوب إفريقيا، والصهيونية والاستعمار الإسرائيلى»[٤٧].

* * *

هـوامش الفصل السادس

(١) Bernard Lewis, The Anti - Zionisti Resolution, Foreign Affairs Vol. 55, No 1, October 1976, p. 55.

(٢) The Diaries of Theodor Herzl (New York, 1956).

(٣) Arnold Toynbee, the Study of History (New York, 1956).

(٤) Richard Meinertzhagen, Middle East Diary 1917 - 1956 (London 1959), p. 67.

(٥) المصدر السابق، ص ٤٩ .

(٦) المصدر السابق، ص ٢٠٣ .

(٧) هرتزل، المصدر السابق، مجلد١ ، ص ٨٤ .

(٨) انظر كتابه Krisis und Entscheiung in Judentum (Berlin 1921, pp. 188,62.

(٩) ماينرتز هاجن، المصدر السابق، ص ١٨٣

(١٠) المصدر السابق، ص ٨١ .

(١١) المصدر السابق، ص ١٧ .

(١٢) المصدر السابق، ص ١٢ .

(١٣) المصدر السابق، ص ١٦١ ، ص١٦٧ .

(١٤) حديث السناتور لودج عام ١٩٢٢م، فى بوسطن New Palestine Vol, 2, 1922, p. 330.

(١٥) كلارك كليفورد لترومان، ٦ مارس ١٩٤٨ ، أوراق كلارك كليفورد، مكتبة ترومان، صندوق ١٣ ، ص ١٠ - ١١ .

(١٦) المصدر السابق، صندوق ١٤ «ملخص الاقتراحات للسياسة الأمريكية فى فلسطين» .

(١٧) تيودور هرتزل، الدولة اليهودية (لندن، ١٩٣٤م).

(١٨) بريطانيا العظمى، مكتب السجل العام و ٢٤/ ٢٤/ ، ٢٣ أغسطس ١٩١٧م.

(١٩) مجلس العموم، ١٠ يوليو ١٩٠٥ م.O. R مجموعة ١٥٥ ومجلس العموم، ٢ مايو ١٩٠٥م، O. R مجموعة ٧٩٥ . انظر كذلك David V. Lipman, Social History of the Jews in England (London, 1954), p. 141 ff.

(٢٠) بروتوكولات، المؤتمر الصهيونى السابع، ١٩٠٥ ، ص ٨٥ .

(٢١) كما ورد Leonard Stein, The Balfour Declaration (London, 1961). p. 143.

(٢٢) المصدر السابق .

(٢٣) إيرل أكسفورد وأسكوث، «ذكريات وتأملات» (لندن، ١٩٢٨م)، مجلد ٢، ص٦٥.

(٢٤) شتاين، المصدر السابق، ٢٧٤.

(٢٥) Nahum Sokolow. The History of Zionism. (London. 1919. 2.p.xxi.

(٢٦) فى كتابه «أمريكا وفلسطين» (نيويورك، ١٩٤٥م) ص ٣١ وصف روبن فنك هاوس بأنه صديق مخلص للصهيونية. أما أدلر Selig Adler فيصفه بأنه «ليس معاديًا للصهيونية فحسب، ولكنه لا سامى كذلك». انظر The Palestine Question In The Wilson Era, Journal of Jewish Social Studies, Vol 10, No. 4. 1948. p. 306

(٢٧) كما ورد William E. Doff. Jt. and Marha Dodd (eds) Ambassador Dodd's Diary (New York. 1941). p. 10.

(٢٨) كما ورد فى ص ١٥٢ من المصدر السابق لماينرتزهاجن الذى أجرى ثلاثة لقاءات مع هتلر و«روبنتروب ـ Ribbentrop»، وزير الخارجية الألمانى، فيما بين عامى ١٩٣٤ و ١٩٣٩م، وكان موضوع الصهيونية يبحث فى كل مرة.

(٢٩) المصدر السابق، ص ١٥٢ و١٥٨.

(٣٠) المصدر السابق.

(٣١) يعتبر كتاب إلياهو بن اليسار La Diplomatier du IIIe Reich et les Juifs (Paris, 1969) واحدًا من أكمل الدراسات الموثقة والموثوقة عن التحالف النازى الصهيونى.

(٣٢) المصدر السابق، وكذلك: Klaus Polkehn' Secret Contacts Zionist Nazi Relations 1933 - 1941 مجلة الدراسات الفلسطينية. مجلد ٥، رقم ٣/ ٤ ربيع/ صيف ١٩٦٧م ص ٥٤ ـ ٨٢: يبحث المؤلف أصول وعلاقات اتفاقية هافارا التى عقدت عام ١٩٣٣م، والتى قايضت الهجرة اليهودية إلى فلسطين بواردات البضائع الألمانية إليها فى وقت كانت الدول الغربية تحاول مقاطعة ألمانيا النازية اقتصاديًا.

(٣٣) سجلات الأمم المتحدة، الجلسة ١٢٧ للجمعية العامة، ٢٨ نوفمبر ١٩٤٧م.

(٣٤) للاطلاع على دراسة مفصلة للأساس الأيديولوچى للتفرقة العنصرية فى جنوب إفريقيا انظر: چورچ جبور «الاستعمار الاستيطانى فى جنوب إفريقيا والشرق الأوسط» (بيروت، ١٩٧٠م).

(٣٥) Richard P. Stevens, Israel and Africa, in Zionism and Racism (Tripoli, 1977). p. 165.

(٣٦) H.C. Armstrong, Grey Steel: J. C. Smuts, A study in Arrogance (London, 1937). p. 330.

(٣٧) كما ورد فى Richard P. Stevens, Weizamann and Smuts, A Study in Zionist - South Atrican Coopertion (Beirut, 1975) p. 33.

(٣٨) Sarah Gertude Millin, General Smuts (London, 1936). Vol, 2. 122 - 13.

(٣٩) كما ورد فى ص ٤٨٣ من كتاب Stein السابق:

(٤٠) انظر كتاب ستيڤنس «وايزمان وسمتس» السابق، ص ١١٢.

(٤١) South African Zionist Record April 1947.

(٤٢) Richard G. Weisbord, Dilemma of South African Jewry Journal of Modern African Studies, Vol. 5, September 1967, p. 239.

(٤٣) المصدر السابق، ص ٢٣٦.

(٤٤) Leslie Rubin Afrikaaner Nationalism and the Jews, Africa South, Vol. 1, No. 3. April - June 1957, p. 2.

(٤٥) Rand Daily Mail, 21 November 1961.

(٤٦) Die Burger, Cape Province, 29 May 1968.

(٤٧) قرار الجمعية العامة رقم ٣١٥١ (ج ٢٨) فى ١٤ ديسمبر ١٩٧٣م. انظر كذلك «تقرير عن العلاقات بين إسرائيل وجنوب إفريقيا» الذى تبنته لجنة الأمم المتحدة الخاصة بالتمييز العنصرى فى ١٩ أغسطس ١٩٧٦م.

* * *